الشعلة الدستورية

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

الشعلة الدستورية سنة ١٩٠٨
وانقضاء العهد الحميدي

أدرك أحرار الأتراك حرج الموقف السياسي ، وكأنما لمحوا بلحظ الغيب الى العواقب السيئة بل الى الانفجار المتوقع من استمرار الدولة على فسادها فسعوا الى اصلاح الحال وتمكنوا ان يحملوا السلطان عبد الحميد عند تسنّمه العرش سنة ١٨٧٦ على اعلان الدستور والحكم النيابي

لكن ذلك الدستور لم يلبث — كما رأينا — أن خنق في المهد . وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الاضطراب السياسي والاجتماعي طيلة العهد الحميدي [١]. ولعلّ الابيات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد . قال [٢]

يبكي بنوكَ ويضحك الزمنُ ماذا أصابك أيها الوطنُ
ما أوشكت ان تنتهي محنٌ الاّ وجاءت بعدها محنُ
أما الرسوم فانها درستْ أما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله فالحقُ فيه ما لهُ ثمنُ
يا قوم هبّوا من مضاجعكم طال المدى حتّام ذا الوسنُ

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآهُ جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها « نحن في غفلة » [٣]

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني — الهلال م ١٧ ولا سيما ص ١٥٧ — ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر) ١٩٢٤ ص ٢٩١

نحن في غفلة نيامٌ وعنّا ... مثبات الزمان غير نيامِ
نحن في دولةٍ تداركها الله ... تبيح المحظور للحكّامِ
وعدها بالاصلاح جمٌّ ولكن ... لا يجوز الاصلاح حدّ الكلامِ
نحن قوم قضت ارادة شخصٍ ... واحدٍ ان نعيش كالأنعامِ

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدّامة من الخارج ومن الداخل . وقد صدق روحي الخالدي اذ قال [1] « فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مضطردة ولا أصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة النادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون من دخولهم في التابعية العثمانية » فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي [2]

رعى الله شعباً أهملته رعاته ... وملكاً كبيراً ركنهُ متزعزعُ
تقطّع منهُ كلَّ يوم مدينةٌ ... وما الكفّ الاّ أصبع ثم أصبعُ

وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها [3]

ذهبت ويا للهول أرض كريد ... عصائب هتكتْ ستار العيد

وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي أدّت — بزعم الشاعر — الى تجزئة المملكة وزعزعة أركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطنة مقرونة بشعور الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس [4]

يقول أحبتي صبراً ... وهل في النار يُصطبرُ
ونحن أمامنا وطنٌ ... نراهُ اليوم يحتضرُ
فمن يجزع فمعذورٌ ... ولكن قلَّ من عذروا
فيا أفق اللهبْ حزناً ... وجُد بالدمع يا مطرُ

في مطلع القرن العشرين نرى السلطنة العثمانية بين المطامع الاوربية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقّة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء « الاتحاد والترقي » فاضطروا عبد الحميد الى اعلانه والشروع في انتخاب نواب الامة. وهكذا كان يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطنة

(١) الهلال ١٧ — ١٦٢ (٢) اللباب ١٣ (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسعد حادي
(٤) ديوانه ٥٦

العثمانية اذ تنادى زعماء الامة بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت أصواتهم في أنحاء البلاد وكان لها دويّ عظيم بين أبناء الشرق العربي

(الاستبشار العام بالعهد الجديد) وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وأبناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل. فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر. وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب وأعمال القائمين به [1]. ولا نبالغ اذا قلنا انهُ ما من حدث حرّك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فنقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة. خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفهما لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيهما. ويكفي ان نلمح هنا الى قصائد عبد الله البستاني، وعمي الدين الخياط، وشكيب أرسلان، والياس فياض، ونقولا فياض، وفارس الخوري، وأمين ناصر الدين، وعبد الرحمن سلام، ومصطفى الغلاييني، وشبلي ملاّط، وبشارة الخوري، وسواهم من شعراء الوطن، وسعيد شقير، وأحمد رستم، والشاعر القروي، وشبل دموس، ونعوم مكرزل وأمثالهم في مصر والمهاجر الغربية. هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي ليست من البيان بسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً. وهناك الزهاوي، والرصافي، والدجيلي، والبابلي، والشبيبي، والحلواني، والازري، والعُبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذٍ صورة لبغداد تُعدُّ مثالاً صادقاً لجميع المدن العثمانية. قال [2]

وقفتُ والعين تبكي من مسرّتها أمام شعبٍ من الافراح عجّاجِ
أمام بحرٍ من الافكار مضطرب أمام جيشٍ من الاصوات رجراجِ
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها كالبحر يضرب أمواجاً بأمواجِ

أزاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كان يثير اشجانه من مساوىء العهد الماضي — عهد الظلم والجهل والفوضى — كما كان ينسه قبلاً، فقال والامل يملأ فؤاده [3]

البرق أهدى لنا بُشرى بما هدأتْ أرواحنا بعد طول الخوف والرهبِ
بُشرى كما تبتغي الآمال صادقة أجلّها الناسُ من قاصٍ ومقتربِ
لقد أقرّ لعمري أعيناً سخنت ما نالهُ نفة الاحرار من أربِ

(١) قال المقتطف (٣٣ — ٩٠٥) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها. تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٥

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت [١]

« هذه أول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها . ويزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور فاليوم شعر السوريون بطيب الحرية وأدركوا سوء عقبة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب الذي يفرّق الكلمة يفرّق القلوب. اليوم دروا ان أوربا لم تتفحص صولتها الا بالاتحاد ، ولا اتحاد مع التعصّب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنهُ شعور الناس يومئذٍ . وقد كان ذلك الشعور يتدفق شعراً ونثراً على ألسنة كبار الادباء وعلى ألسنة صغارهم وكان للشعر العامي نصيب وافر منهُ ولا سيما في لبنان ومهاجره ومن أمثلته قول أحدهم ارتجالاً [٢]

يا اســـلامْ ومسيحيّه اسمعوا لي ها القضيّه
اهل الارضْ بطول وعرضْ يقولوا تحيا الحريّه

***

أهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحريه
فليحيا يازي وأنور والجيـــوش الشاهانيه

***

أهل الارض بكاملها من أوّلها لآخرها
تركيا الله يعمّرها بجاه ربّ البريّـــه

***

بَطَلْ روح الاستبدادْ نادوها بكل البلاد
زمان الماضي ما ينعاد النظم نجومه مخفيّه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر توالي ذلك الحين تكليل الفالي الشحروري والياس الفرّان وسواهما . وللاول مخمّس دعاه صوت الحريّة ومطلعه

صوت البرى من قاع بوسفور العتيق لما وصل لله من أقوامْ طريقْ
المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديدْ على العتيقْ

***

المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة والروح لبستها بعد ذاك الممات
والرب أوعبها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينة باكيه
والمظالم راحْ يتحققها حتيقْ

(١) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨ (٢) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٢

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية . وكذلك ذكره « قرّادية » للقرآن مطلعها

كنت بأكبر بليّه بسجن المودبيه

وبعض أتوان المهاجرين فلتراجع [١]

ولم تقصّر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على أنهُ لا مناص للناظر المتعمق في الخوالج الشعرية يومئذٍ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً من التفاوت بين النزعة المصرية الصميمة وغير الصميمة . فبينما ترى الاخيرة تقرن النبطة الدستورية بذكريات العهد البائد ومآثر رجال الاتحاد ، وتحوم دائماً حول ما كان يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق عرى الاخلاص له . وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه أو فساده ، وحال الرعية في أبّان استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني [٢] ومطلعها

بشرى البريّة قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

فهي فيض من الحبور ، وبشرى وضاءة بمستقبل زاهر مستقر لهُ عيون العثمانيين ولكنها عند التحقيق قلادة درّيّة يضعها في عنق السلطان . اثنان وخمسون بيتاً أكثرها يدور على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله —

أسدى الينا أمير المؤمنين يدا جلّت كما جلّ في الاملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكّة الكبرى [٣] ومنشيها
إنّ الندى والرضى فيه واسرته والله للخير هاديه وهاديها
خلافة الله في احضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها

بل هو يعزو الى عبد الحميد قبول الدستور راضياً مرضيًّا وانهُ لو أراد لرفضه وأحدث حرباً أهليّة عظيمة —

حقنت عند مناداة الجيوش بها دم البريّة ارضاه لباريها

وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله ولا يشير الا بيت واحد فيها الى رجال الدستور وفي نهايتها يهنيء العثمانيين ويشير الى حال مصر والى أماني المصريين فيقول —

ياشعب عثمان من تُرك ومن عرب حيّاك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحقّ حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معانٍ أنت تدريها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ — ١٦٠ — ١٦٢ (٢) الشوقيات ١ — ٣٥٨
(٣) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية

ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته « تحية الاخلاص » [1] للامة العثمانية الدستورية فنها بمدح السلطان عبد الحميد لاعلانه الدستور ومدّه مكة الحجاز . ويستهلّها بقوله —

اثنى الحجيج عليك والحرمان وأجلّ عيد جلوسك الثقلان
أرضيتَ ربّك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمّة شتى المذاهب جمّة الاضغان

ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحرّية —

تلجت صدورهمُ وقرّ قرارهم لما حلفت باوثق الأيمان
يا يومَ عاد النازحون لارضهم يتسابقون لرؤية الاوطان
لله كم اطفأتَ من نارٍ ذكت دهراً وكم هدّأت من اشجان
هذا يطير الى «فروق» ومن هنا شوقاً وذاك الى رُبى لبنان
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا باللثم عهد خليفة الرحمن

ويحيي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليه وعلى أعوانه حملة شعواء . وفي القصيدة وصف للحرية محبوبة الجميع . وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور وتمنّ أن يكون لمصر نصيب منه —

تمّوز أنت أبو الشهور جلالةً تمّوز أنت مُنى الاسير العاني
هلاّ جعلتَ لنا نصيباً علّنا نجري مع الاحياء في ميدان
ايعود منك الآملون بما رجوا وتعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوئام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نقابات المصريين الدستورية . ويقابلها نقابات الذين ذاقوا مرارة العهد الحميدي : فنها كما أسلفنا يقترن الحبور بذكر الماضي ، كما ترى في شعر ولي الدين يكن ومنه قصيدة في انتاح البرلمان العثماني يقول فيها [2]

بالامس كنا معشراً تبكي لحالتنا المعاشرْ
تقتادنا الايدي الاثيمةُ للسجون وللمقابرْ
ويصول أنصار المليك على الاكابر والاصاغرْ

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي : —

لله قصرٌ شامخٌ مدُّ النواظر عنهُ قاصرْ
قصرٌ به يعلو النـ وي رأس مأمورٍ وآمرْ

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ج ٣ — ٢١ (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٥٤

وتحيش عاطفة الشكر في نفسه فيقول

يا دهر شكرك واجبٌ ما دهرُ ما في الناس كافرْ
لم يبق ظلمٌ يشتكى دارت على الظلم الدوائرْ

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد — الى ذكر المساوىء التي كانت تزعج الناس وتؤلمهم نظماً لحسنات الدستور وبثًّا لما كانت تكظمهُ الصدور تراه شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدع فهم يعبرون عن شعور أمة كانت ترسف بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، وأطلقها حرّة تنعم بسعادة الوجود . ولو أردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية لملأنا صفحات عديدة من قصائد الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأنموذج منها . وهو أبيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قالها يخاطب الجند الذين تمّ على أيديهم اعلان الدستور

اليوم نمرحُ احراراً بفضلكمُ يغدو ونمسي ولا همٌّ ولا نصبُ
قد أطلق الحرُّ من سجنٍ أحين به وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم ولا جرائد تأتينا فترتقبُ
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا ونهض الصبح لا خوفٌ ولا رعبُ
كم بين حال انتنا كلُّها طربٌ وبين حالٍ عدمنا كلُّها رهبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها [1]

يا ايها الناس حيّوا ذلك العلما وسبّحوا خالق الحرية الأبما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احيوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء . ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سوّاكمُ العدل اخواناً سواسيةً فليس يُظلم فيكم غير من ظلما
وليس يقضي اديبٌ عن مواطنه ولا يضام حليم قال ما علما
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروته ولا يجازى فقير فقره أثما
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن قد شفّه الداء حتى عاشر السقما
لا يستنّ بحقٍّ من حقوقكم ذو سلطةٍ جائرٌ مهما علا وسما

***

وسواء أكان الشعر العربي عالقاً للعرش العثماني ام غير عالق فان الدستور التي عليه عموماً

(١) الهلال ١٧ — ١٧٢

سحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السيادة الفردية والقومية ومفتاح الرقي الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنهُ لم يطل

﴿خلع عبد الحميد﴾ والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الحبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبد الحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسوا بادىء ذي بدء عرشهُ فظلّ حيناً يشتّع بنفوذ عظيم . على انهُ لما احدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون أن في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعه سرّت هزة شعرية لا تقلّ عن هزّة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكنّهُ لشخصه ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئه . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس الخوري[1] مطلعها

الله اكبر فالظلاّم قد علموا لايّ منقلبٍ يُفضي الأُولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت أركانهُ وتولّت أهله النّقَمُ

ومنها يخاطب عبد الحميد ساخراً به ذاكراً مجد اسلافه

شادوا لك العزّة القعساء من قدم فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضةٌ وفي زمانك لا سيفٌ ولا قلمُ
حصدت ما زرعوا فرّقت ما جمعوا هدمتَ ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وهي طويلة وكلها من هذا النفَس البليغ . وأشد منها تشفيًّا قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب[2]

مضى عبد الحميد الى مكان رمتْ فيهِ أم قشعم الرحالا
مضى وله بفعل الشر ذكر كما ذكر الالى كانوا مثالا
مليكٌ قد تسربل بالمخازي وعمّ الارض غدراً واحتيالا
امير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حلالا
عدوّ الدين والاسلام هلاّ علمت بانّ في الدنيا زوالا

ولمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك على الاستانة وخلعهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها —

لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجّوا بالبكاء له حنينا

(١) فارس بك الخوري (رئيس المجلس النيابي السوري الآن) راجع القصيدة في المقتبس ٤—١٣٧
(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شيخو) ١٨٥

وناداهم لنصرته فقاموا جميعاً للدفاع مُستَلْحِيا

ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين —

أتينا دار قسطنطين صحاً وقد فتحت لهم فتحاً مُبينا
وظلّ الجيش جيش الله يمشي بحدّ سيوفه الداء الدفينا
فأرهق أنفس الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وحطوا قصر يلدز عن سماه لهُ فانحطّ أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هويًّا الى درك الملوك الظالمينا
وفي ختامها — واسقط ذلك الجبّار قهراً وأنبأه بصارمه اليقينا
فقرّت أعين الدستور أمناً وشاعت أوجه المتردّدينا

وله في ذلك قصيدة أخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاء. وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد أن سقط صاحبه (عبد الحميد) وأرسل سجيناً الى سلانيك ، فيذكر ماكان له من مساوىء ومظالم ويختم القصيدة بنفثة تحريضيّة حماسيّة فيقول —

إنما نحن أمةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوالِ
أمّة سادت الانام وطابت عنصراً من أواخر وأوالِ
فاذا ما علا الغشوم نهضنا فنقذناه سافلاً من عالِ
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأُلي الجور لا من الصلصالِ

وهنا تحمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً متذراً إياهم بسوء المصير فيقول —

يا ملوك الانام هلاّ اعتبرتم بملوكٍ تجور في الافعالِ
فاتركوا الناس مطلقين والاّ عشتم موثقين بالاوحالِ

***

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحمل على عبد الحميد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسببين رئيسيين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقهُ اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجنبي قد أثار حفائظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا

مراراً بمودتهم للنيابة ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونهُ ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حبة قسّالة ، وان يكونوا أعطف على الهاوي عهدُ وأقرب الى الصفح عن سيئاته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور »[1]

خطبُ الإمام على العظيم يعزّ شرحاً والنثير
شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله لهُ والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه اولى بالكرم او عذير

والنظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبد الحميد

عبدالحميد حسابك مثلك في يد الملك القدير
ماذا دهاك من الامو ر وأنت داهية الامور
دخلوا السرير عليك يحتكمون في ربّ السرير
أعظِم بهم من آسرين وبالخليفة من أسير

وكما كان طبيعيًّا ان يتلبّس شعر شوقي ثوب الوفاء للسلطان والعطف عليه كان طبيعيًّا ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من أهوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة[2] على وزنها ورويها منددًا بعبد الحميد معدّداً سيئات حكمه كقوله : —

ان اللائين التي مرّت بنا سرّ الصور
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامور
من كان يدعوك الخيرَ فلست عندي بالخبير

ويقول مشيراً الى شوقي وطبقته متألماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما أُديل عن السرير بكاه عباد السرير
أسفوا عليه وانما أسفوا على المال الدرير
طلبوا لهُ عفو الغفور وشذّ عن عفو الغفور

(١) الشوقيات ١ — ١٢٦ (٢) ديوانه ٣٠

وما نراهُ في شعر شوقي نراهُ في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم ونود ان نشير هنا اشارة خاصة الى قصيدتين لحافظ [1] فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدها من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد الحميد

ومنها — شمت المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود

شمتوا كلهم وليس من الهمّة ان يشمت الورى في طريد

انت عبد الحميد والتاج معقودٌ وعبد الحميد رهن القيود

خالدٌ انت رغم انف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوىء الحميدية ، مرتبطة بشعور واحد هو شعور العطف والوفاء لخليفة

ولي الامر تلتَ قرنٍ ينادي باسمهِ كلُّ مسلمٍ في الوجود

على انَّ هذا العطف اخذ يخفُّ في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري الاول ينشد قصيدته التي مطلعها « اجل هذه اعلامه ورواكبهُ » فيذكر محامد الدستور وما في محمود شوكت وبيازي وأنور. ويقف على يلدز واصفاً ما اصابهُ ، معدّداً أوهام صاحبه واخطاءه ثم يقول

سلوه ألغنتْ عنهُ في يوم خلعهِ عجائبهُ او احرزتهُ رغائبه

وأخرجهُ من يلدزٍ ربّ يلدزٍ وجرّده من سيف عثمان واهبه

وأصبح في منفاه والجيش دونهُ يغالبُ ذكرى ملكه وتغالبه

ينادي بهِ صوت الحقّ ذق ما أذقتهم فكلُّ امرىءٍ رهنٌ بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندكَّ صرحهُ وولّتْ أقاصيهِ وماتت عقاربه

وإذا تابعنا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة أشهر وجدنا ان تحوّل عطفه عن ذلك السلطان لم يخفّف من ولائهِ للعرش العثماني والخلافة الاسلامية فهذا العيد يستحثهُ لمدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول —

لتهنِ امير المؤمنين محمداً خلافتهُ فالعرش سعدٌ كواكبه

تسلك امواج البحار سفينه كما ملكت تمّ الجبال كتائبه

ممالكه محروسة وثغوره ركائبه منصورةٌ ومراكبه

[موضوع الحلقة التالية من هذا البحث النفيس — الدستور والروح الوطنية —]

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ٣ ص ٣٠ — ٤٤